بسم الله الرحمن الرحيم

٥٠ - سُورَة قٓ

وتسمى سورة (الباسقات) . وهى مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .

قال ابن كثير: وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام أنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم . والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل وحده . فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (قٓ) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وألم السجدة وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وصٓ والزمر وغافر وحٰمٓ السجدة وحٰمٓ عٓسٓقٓ والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصـــل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعيّن أن أوّله سورة (قٓ) .

وروى الإمام أحمد[١] ومسلم[٢] وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثىّ : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد ؟ قال : بـ (قٓ) و (اقتربت) .

وروى مسلم[٣] وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (قٓ) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفى رواية : كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الـكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤و١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٧ ـ كتاب الجمعة ، حديث ٥١و٥٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ)

« قٓ » هو حرف من حروف التهجى المفتتح بها أوائل السور ، مثل : صٓ ، ونٓ ، والٓم ، وحمٓ ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (قٓ) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصَدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتُرِىَ فى هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها، أحاديثُ عن النبىّ ﷺ ، وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفّاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله[1] (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوّزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عَمْرو .

ثم ردّ ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (قٓ) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر[1] :

* قلت لها قِفي فقالت قاف *

أى : إنى واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ » أى : لأنْ جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملَك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود ـ إضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، ولكن لجهلهم .

« فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

---

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بموجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ)

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار . والعامل فى (إذا) مضمر غنىّ عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمنذر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَٰلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌۢ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ)

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو ردّ لاستبعادهم ، وإزاحة له . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى . وتأكل من لحومهم وعظامهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن فى الأرض منهم . « وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ » قال أبو السعود : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد : إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم مَن عنده كتاب محيط ، يتلقى منه كل شىء . أو تأكيد لعلمه تعالى بها ، بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ)

« بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى من غير تأمّل وتفكّر .

قال الزمخشرىّ : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات ، فى أول وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر. وكونه أفظع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه. « فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالتهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تعنتاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ » أى هؤلاء المكذّبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّٰهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » . قال ابن جرير[1] : يعنى وما لها من صدوع وفتوق . كقوله تعالى[2] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالًا ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يبتهج به لحسنه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٦٧ / الملك / ٣و٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر فى بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ)

[١٠] (وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)

[١١] (رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً مُّبَـٰرَكًا » أى كثير المنافع ، « فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ » أى أشجارًا ذوات أثمار ، « وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء ، النخل طوالًا ، أو حوامل . من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعل) فهو من النوادر كالطوائح واللواقح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّـٰتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل . « لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضه فوق بعض . « رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنۢبَتْنَا) . وفى تعليله بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير ، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رِّزْقًا) مصدر من معنى (أَنۢبَتْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ » أى بذلك الماء « بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أرضاً جدبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، فـ (كَذَٰلِكَ) خبر (ٱلْخُرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقية البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده ، يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . « وَثَمُودُ » وهم الذين جادلوا صالحا ، وقتلوا الناقة . « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هودًا فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازىّ : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إتيان الرجال . « وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ » أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ » قال المهايمىّ : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ » أى كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسولهم ،

ومن كذب رسولًا ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى[١] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم فى نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ـ أفاده ابن كثير ـ وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلٌّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به مَن كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير[٢] : إنما وصف تعالى فى هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ أنه مُحِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسلية للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العىّ هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائىّ : تقول (أعييت) من التعب و (عييت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية[٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ . . .) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثانى، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة مامات وتفرق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلٰهية ، وسهولة ذلك فى المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عرَّف الخلق الأول ، ونكَّر اللبس ، والخلق الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور فى قوله[1] (وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلًا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى . أى إذا لم يعْىَ تعالى بالخلق الأول، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرةً يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث مافيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة . ومرةً يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول[2] (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) وقوله[3] (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و[4] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثانى : هو الأصل فى التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : فى لبس أىّ لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ » أى تحدّث به نفسه، وهو مايخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوىّ ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذلك القرب أتم من غاية القرب الصورىّ ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوّز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتنزّهه عن القرب المكانىّ ، إما تمثيلًا ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشىء سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقى الحبل على حقيقته، فإضافته كلجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحتضر[1] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) يعنى : ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥].

تبارك وتعالى : (١)(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عزوجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمّة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ماذكره ، بماورد فى الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهى سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الربانىّ ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إيثار (نحن) على (أنا) لايحسم ما نفاه ، لاحتمال إرادة التعظيم ؛ (نحن) كما هوشائع ، فلايتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ماذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيما للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ماعرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَن قال فى تفسير الآية كالقاشانىّ ـ ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشىء يشهد بالبينونة والاثنينية الراجعة للاتحاد الحقيقىّ . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة فى هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التى هى الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدما صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشانىّ . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما ، فى كتاب (دلائل التوحيد) الذى طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدُ ، مسبوقا بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله فى كتابه (شرح حديث النزول) : ليس فى القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

من كل شيء أصلا ، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى[١] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما فى الصحيحين[٢] عن أبى موسى الأشعرىّ ؛ أنهم كانوا مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، وإنما تدعون سميعاً قريبا . إن الذين تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) . فقال : إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام[٣] (فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ ـ ٤٧ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولـكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا فى آية[1] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوّه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت فى لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال[2] (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) وقال[3] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبى حاتم بسنده أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله! أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبىّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال فى هـذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكّوا فى ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنمـا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب فى الآية والحديث بالعلم ، لـكونه هو المقصود، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعى حصل مقصوده . وهذا هو الذى اقتضى أن يقول من يقول، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لـكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهـذا المعنى يقرُّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال: وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات البارئ جل وعلا قريبة من

(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .
(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما فى لفظ المعية . ولا حاجة إلى هـذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) أى بملائكتنا ، فى الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشىء أعلم من غيره، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه. ثم إنه سبحانه عالم بما يُسَرُّ من القول، ومايجهر به، وعالم بأعماله، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى[1] (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم، سياقُ الآية، فإنه قال[2] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فأثبت العلم، وأثبت القرب، وجعلهما شيئين ، فلا يحمل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا فى غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه فى كل مكان، وإنه قريب من كل شىء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شىء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم فى جميع بدن الإنسان ، وهو فى أهل الميت ، كما

---

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / قٓ / ١٦] .

هو فى الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين. فقيدالقرب بهذا الزمان، وهو زمان تلقى المتلقيين ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال[1] (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين الرقيب والعتيد معنى مناسب. وكذلك قوله فى الآية الأخرى[2] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ* وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر فى بعض الأحوال ، لكن نحن لانبصره ، والرب تعالى فى هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده فى هذه الحال. وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هى فى مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لايختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شىء من شىء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما فى قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى[3] (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ* وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ* فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ* وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ). ومعلوم أن مثل هذا الكذب لايخصه الرب بقرب منه، دون من حوله، وقد يكون حوله قوله مؤمنون. وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى[4] (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ) وقال

---

(١) [٥٠ / قَ / ١٨] .
(٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣ـ٨٥] .
(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨ـ٩٤] .
(٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

تعالى[١](وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ) وقال[٢](وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى[٣] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى[٤] (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) وهذا كقوله[٥] سبحانه (نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال[٦] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) وقال[٧](إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى فى كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة . فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع المعظم الذى له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين[٨] عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا هم العبد بحسنة كتبت

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] .
(٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .
(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] .
(٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .
(٥) [٢٨ / القصص / ٣] .
(٦) [١٢ / يوسف / ٣] .
(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧ـ١٩] .
(٨) أخرجه البخارىّ فى: ٨١ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .
وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذى اختص الله به .

ثم قال : وقوله [١] (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال [٢] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا [٣] : (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى [٤] (إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصّل فى تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ) لما كانت ملائكته مقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال [٥] تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة فى النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .
(٣) [٥٠ / قٓ / ١٨] .
(٤) [٣٦ / يس / ١٢] .
(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ)

« إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملكان الحفيظان مايتلفظ به . فـ (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنىّ عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على مايخفى عليهما ، لكنه لحكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى مايرغبه ويرهبه فى الأولى .

وقال القاشانىّ : بين تعالى بهذه الآية أقربيّته لينتفى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقيين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقيهما للحجة عليه ، وإثباتُ الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقول الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيّرة بالذات ، لكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشرورُ إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيآته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكلما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح ، أى التنزيه عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصلىّ ، وسنخه

الحقيقيّ ، وحاله الغريزيّ، لينمحى أثر ذلك الأمر العارضيّ، بالنور الأصليّ والاستغفار ، أى التنوّربالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية، لينمحى أثر تلك الظلمة العرضية، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر فى كلام القاشانيّ رحمه الله تأويل الملَك بالقوة الحاثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هذا الشيء الذى أودع فينا ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزاليّ إلى هذا المعنى ، وعبّر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكاً ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته .

لطيفة : (قَعِيدٌ) كجليس ، بمعنى مجالس ، لفظاً ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله[1] :

* فإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

---

(١) قائله ضابىء بن الحارث البرجميّ . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ *
و (قيّار) اسم جَمَلِهِ .
وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرّد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوربا) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله[1] (وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ)، وضعّف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعيل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهـذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ » أى شدّته المحيّرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِٱلْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلًّا منهما مذهب للعقل، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإثبات السكرة لها ، تخييل . « ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيته هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبيّ : إن اتصل قوله (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ . .) الخ بقوله (فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أى جاءك أيها الفاجر الحق الذى أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ . . .) الخ ، فالمشار إليه الموت. والالتفات لا يفارق الوجهين . والثانى هو المناسب ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله[1] (أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)[2] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ » يعنى : نفخة البعث « ذَٰلِكَ » أى النفخ « يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ » أى وقت تحقق الوعيد، بشهود ما قدم من الأعمال وما أخر « وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير[3] : أى سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثانى الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال :

وقال القاشانىّ : أى سائق من علمه ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذى يسوقه إلى ذلك الشىء إنما نشأ من شعوره بذلك الشىء ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفلياً جسمانياً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقوّاه ؛ أو أمراً علوياً روحانياً بعثه عليه عقله ، ومحبته الروحانية ، وحرّضه عليه قلبه وفطرته الأصلية. فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيه ،

(١) [٥٠ / قَ / ٢٤] . (٢) [٥٠ / قَ / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

والعمل المكتوب فى صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيآت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ)

« لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ » فى المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها ـ أنه النبىّ ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة فى خلال أمر النبأ الأخروىّ ، تنويهاً بمنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلوّ الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قوىّ ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية[1] (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ) .

وثانيها ـ أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت فى غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جلينا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية[2] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وآية[3] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها ـ أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البرّ والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .
(٢) [١٩ / مريم / ٣٨] .
(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعوّل ابن جرير[١] فى الأولوية على الثالث .

قال الزمخشرىّ : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً . فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشانىّ فى تأويل الآية : (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنكَ) بالموت (غِطَآءَكَ) المادىّ الجسمانىّ ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوىّ تعاينه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُم » أى قرين هذا الإنسان الذى جىء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قيض له مقارناً له يغويه ، وهو الأظهر ـ كما اعتمده الزمخشرىّ ـ لآية[٢] « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ » ويشهد له قوله تعالى[٣] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) « هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ » أى هذا شىء لدىّ حاضر مُعَدٌّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى صحفه ، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدىّ عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاشانىّ : (وَقَالَ قَرِينُهُۥ) أى من شيطان الوهم الذى غرّه بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) مهيأ لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / قٓ / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده فى طلب اللذات البدنية ، حتى هيأه لجهنم فى قعر الطبيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق ، ألق ، ثم حذف الفعل الثانى ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، فثنى الضمير للدلالة على ماذكر . أو الألف بدل من نون التأكيد ، لأنها تبدل ألفاً فى الوقف ، فأجرى الوصل مجراه ـ أوجه ذكروها ـ .

وقال ابن جرير[1] : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين . وفى ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما ـ أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذى يكون بلفظ الواحد فى الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثانى ـ أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلاها ، وازجراها ، كما قال[2] :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْبِسانَا ... بِنَزْعِ أصولِهِ واجْتَزَّ شِيحا

وقال أبو ثَرْوَان[3] :

فإن تزجراني يا ابنَ عفانَ أَنْزَجِرْ ... وإن تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضا ممنَّعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربعىّ الفقعسىّ .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلىّ . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفىّ ليلى : أَلا تَرَى ... إلى ابن كراع لا يزال مُفَزَّعاً

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا : ياصاحبيّ ، ياخليليّ . انتهى .

و (الكَفَّار) المبالغ فى جحده وحدانيةَ الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه . و (العَنِيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلا فى مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ)

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى الكلىّ ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير[1] أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمىّ فى ماله ، لأنه لم يخصص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد فى الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش فى المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتد فى منطقه وسيرته وأمره .

« مُّرِيبٍ » أى شاكّ فى الحق ، أو موقع صاحبه فى الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشانىّ : الخطاب فى (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللَّذَين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه فى أسفل غياهب مهواة الهيولى الجسمانية ، وغيابة جب الطبيعة الظلمانية ، فى نيران الحرمان . أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم فى الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوّى الأول : أنه عدد الزبائل الموبقة ، التى أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقوعهم فى نيران الجحيم ، وبيّن أنها من باب العلم والعمل . والكفرانُ ومنعُ الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كها فى لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى فى غير مواضعها من المعاصى والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقيها. وذكرُها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة فى قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ، بتفريطها فى جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره (فألقياه) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فألقياه) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعانى من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد، والمفسِّر والمفسَّر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابىّ . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب [1] (وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ) كان حسناً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك فى (التسهيل) : فصلُ الجملتين فى التأكيد بـ (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الزمخشرىّ فى (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحىّ ، وكلام أهل المعانى فى إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكلًا به فى الدنيا ، متبرئاً منه « رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ » أى بالإرابة ومنع الإسلام، وجعل إله آخر معك « وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانىّ : وقول الشيطان (مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ...) الخ كقوله[1] (إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك. فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير[2] : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرّؤ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ)

« قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ » أى لاتختصموا اليوم فى دار

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة فى اختصامكم ، وقد قدمت إليكم فى الدنيا بالوعيد لمن كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ونهيي فى كتبي ، وعلى ألسن رسلى .

قال القاشانىّ : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لااختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة فى نفوسكم ، ورانت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ)

« مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ » قال ابن جرير[1] : أى مايغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعدقيام الحجة عليه .

وقال القاشانىّ : (وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ) حيث وهبت الاستعداد ، وأنبأت على الكمال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ماينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال مايفنى بما يبقى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآيات أن هذا التقاول على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشانيّ : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى فى القلب ، عند ارتسام مثاله فى الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلًا . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُواْ) ولما كان الأمران فى وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين فى أمر ، لتوقع نفع أو لذة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أو قعا بسعيهما فى خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كل منهما التسبب فى ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضى الله عنه للنبيّ عليه السلام : ورأيت أهل النار يتعاورون . وصوّب عليه السلام قوله . انتهى .

الثانى إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُۥ) وذكرت فى الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول ، كما رأيت فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقاولة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُواْ) ـ علم أن ثَمَّ مقاولة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لدىّ عتيد ، قال الكافر : ربِّ هو أطغانى ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلًا يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تختصموا لدىّ . وذكر الواو فى الجملة

الأولى لأنها أول المقـــاولة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها فى الحصول ، أعنى مجىء كل نفس مع الملـكين ، وقول قرينه ما قال له ـ هذا ملخص ما فى الـكشاف ـ .

الثالث ـ جوز قوله تعالى (بِالْوَعِيدِ) أن تـكون الباء زائدة فى المفعول ، وأن يكون حالًا من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لـكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَا تَخْتَصِمُوا) على تأويل تقـــديم الوعيد بالعلم به . أى : لاتختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع ـ دل قوله تعالى (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) على أنه لاخلف فى إيعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف فى ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة ، حيث قالوا : ماورد فى القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الـكريم إذا وعد أَنْجَزَ ووفّى ، وإذا أوعد أخلف وعفا ـ أفاده الرازىّ ـ .

ووجه الاستدلال أنه لوصح ما ذكروه للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف فى أخباره ـ تقدس عن ذلك ـ مع أن طبيعة الذنب تقتضى العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس ـ ذكروا فى سر المبالغة فى (بِظَلَّامٍ) وجوهاً :

منها ـ أن (فَعَّالًا) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .

ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها ـ أن المنسوب فى المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلًا فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شىء ملـكه ، قدس ذاته عما يتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ)

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ » قال ابن جرير[1] : فيه لأهل التأويل قولان :

الأول ـ أن معناه : مامن مزيد. فعن مجاهد قال: وعدها الله ليملأنها فقال: هلاوفّيتك؟ قالت : وهل من مسلك ؟ !

الثانى ـ معناه : زدنى .

أى : فالاستفهام على الأول إنكارىّ . معناه النفى ، وأيد[2] بآية (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرىّ ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . .) الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لايخلو طبقة منها عمن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية .أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقاولة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة .

وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها فى نفسين. وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوّز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوّزه العقل . وقد وقع مثل هـذا قطعاً فى الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسبيح الحصى فى كف النبىّ ﷺ، وفى يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر فى تفاصيل المقالة، لاتسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة فى الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب: وهو كلام حسن، وأمور الآخرة لاينبغى أن تقاس على أمور الدنيا. انتهى ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر فى الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة، كما أوضحه السيوطىّ فى (المزهر) والجرجانىّ فى (أسرار البلاغة) . وفى شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها ـ والله أعلم ـ .

و (يوم) منصوب بـ (ظلّام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (المزيد) إما مصدر كالمجيد ، أو اسم مفعول كالمبيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

«وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ» أى قربت وأدنيت «لِلْمُتَّقِينَ» أى الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه «غَيْرَ بَعِيدٍ» أى مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أو لكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعومل معاملته ، وأُجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لايحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

« هَـٰذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوعَدُونَ » أيها المتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشانىّ : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلىّ ، كى لايتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ)

« مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانىّ : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعده بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم » أى قبل هؤلاء المشركين من قريش « مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة، كعاد وفرعون وثمود « فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ » أى فضربوا فيها وساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس[1] :

لقد نقَّبتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيَابِ

« هَلْ مِن مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتنقيبهم فى البلاد، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء المشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير[2] : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا۟) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طَوَّفت : أكثرت الطواف والمشى فى نواحى الأرض حتى شق علىّ ذلك . وصرت أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الخبر عنهم . وذُكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ (فنقَّبوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قريش « لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .

« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه . على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : المتفطن ، لأن غير المتفطن كالغائب ، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن ـ نقله الشهاب ـ .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ » أى إعياء .

قال قتادة : أكذب الله اليهود وأهل الفِرَى على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ)

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ، « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد ، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشآن والتهجد . وأدبار السجود . النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ)

«وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أى استمع، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء .

قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِٱلْحَقِّ » قال ابن جرير[1] : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)

« يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَٰلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ » أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعد به من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم !